من كتب الشرق والغرب

نزهة النفوس ومضحك العبوس

هذا عنوان ديوان(١) ألفه شاعر مصرى يسمى ابن سودون ، وقد كان يعيش فى القرن التاسع الهجرى ، وكان إماما ببعض المساجد ، إلا أنه اتخذ الهزل منهجاً له فى حياته، فطار اسمه وتنافس الظرفاء فى الحصول على شعره الذى يذهب كله مذهب الضحك والفكاهة . وقد عنى أخيراً بجمع هذا الشعر فى ديوان وأضاف إليه طائفة من الحكايات والملافيق ، كما يقول هو فى مقدمة هذا الديوان ، وهو يملؤه بضروب من القصائد والموشحات والزجل والدوبيت وأنواع من الموالىا مضيفاً إليها طائفة من الطرف العجيبة والتحف الغريبة .

وقد بنى أغلب الديوان من اللفظ العامى ، وهو من هذه الناحية يسجل جانباً له أهميته فى تاريخ لغتنا الشعبية ؛ فان من يطلع عليه يرى أنه لا تكاد توجد فوارق بين لغة هذا الديوان ولغتنا المصرية المحلية الحديثة ، وإن فى هذا بعض الدلالة على أن مصر بلد محافظ وأنها لا تتطور إلا بقدر محدود؛ فكثير من أمثال هذا الديوان واصطلاحاته وألفاظه لاتزال ماثلة تحت آذاننا فى العصر الحديث .

ولكن الشىء الذى يلفتنا حقاً فى هذا الديوان هو أنه ألف كله فى ضروب من الهزل والدعابة ، ولسنا نعرف شخصاً قبل ابن سودون كتب ديوانا من الشعر كله يأخذ مأخذ الفكاهة ، أو على الأقل لسنا نعرف فى مصر شاعراً احتكره الهزل هذا الاحتكار . حقاً أن فى الخريدة شعراء فاطميين يعتدون بالفكاهة فى شعرهم ، وكذلك الشأن فى العصر الأيوبى،ولكننا لا نجد شاعراً يخصص نفسه بالهزل هذا التخصيص الذى نجده عند ابن سودون .

والحق أن ابن سودون شخصية طريفة فى تاريخ أدبنا المصرى ؛لأنه يفصح إفصاحا واضحاً عن مزاج المصريين فى هذا الجانب الذى تشتهر به مصر فى عصورها الاسلامية المختلفة . وإن من يقرأ هذا الديوان يلاحظ أن صاحبه كان يعتمد فى فكاهاته على المفارقة ، فهى المفتاح الذى ينصب منه جميع نغم الهزل فى الديوان . وقد كان يسلك إلى هذه المفارقة طريقة واضحة ، هى أن يقف بين يديك موقفاً جاداً يريد أن يروى لك بعض العجائب ، ولكنه ما يبدأ فى ذكرها حتى تحس مفارقة ونبواً وشذوذاً عن منطق الحوادث ، وبذلك تسترسل فى الضحك لا لسبب إلا لأنك تشعر كأنك فقدت توازنك ، فقد كنت على أهبة أن تستمع لأشياء غريبة ، فاذا بك تستمع لأشياء كأنها بديهية لكثرة ألفتنا لها وصلتنا بها ومن هنا يأتى الضحك لأن الحقائق تصعد أمامنا وتهوى وكأنها تهوى من أمكنة عالية، هى أمكنة المنطق الواقع ، فنضطرب معها ولا نلبث

---

(١) طبع هذا الديوان فى القرن الماضى طبعة سقيمة . ولكن بدار الكتب المصرية نسخ مخطوطة منه مختلفة .

أن نضحك فى غير نظام ، بل فى فوضى كفوضى الكلام الذى نسمعه . وانظر إليه يقول :

إذا ما الفتى فى الناس بالعقل قد سما ... تيقن أن الأرض من فوقها السما
وأن السما من تحتها الأرض لم تزل ... وبينهما أشيا متى ظهرت ترى
وإنى سأبدى بعض ما قد علمته ... لتعلم أنى من ذوى العلم والحجى
فمن ذاك أن الناس من نسل آدم ... ومنهم أبو سودون أيضاً وإن قضى
وأن أبى زوج لأمى وأننى ... أنا ابنهما والناس هم يعرفون ذا
وكم عجب عندى بمصر وغيرها ... فصر بها نيل على الطين قد جرى
وفى نيلها من نام بالليل بله ... وليست تبل الشمس من نام فى الضحى
بها الفجر قبل الشمس يظهر دائماً ... بها الظهر قبل العصر قيل بلا مرا
وفى الشام أقوام إذا ما رأيتهم ... ترى ظهر كل منهم وهو من ورا
بها البدر حال الغيم يخفى ضياؤه ... بها الشمس حال الصحو يبدو لها ضيا
وتسخن فيها النار فى الصيف دائماً ... ويبرد فيها الماء فى زمن الشتا
وفى الصين صينى إذا ما طرقته ... يطن كصينى طرقت سواً سوا
بها يضحك الانسان أوقات فرحه ... ويبكى زمان الحزن فيها إذا ابتلى
ومن قد رأى فى الهند شيئاً بعينه ... فذاك له فى الهند بالعين قد رأى
وفيها رجال هم خلاف نسائهم ... لأنهم تبدو بأوجههم لحى
ومن قد مشى وسط النهار بطرقها ... تراه بها وسط النهار وقد مشى
وعشاق إقليم الصعيد به رأوا ... ثماراً كأثمار العراق لها نوى
به باسقات النخل وهى حوامل ... بأثمارها قالوا يحركها الهوى
وعندى علوم بعد هذى كثيرة ... تدل على أنى من الناس يا فتى
وما علمتنى ذاك أمى ولا أبى ... ولا امرأة قد زوجانى ولا حما
ولكننى جربتها فعرفتها ... وحققتها بالفهم والحذق والذكا
فيابخت أمى بى ألا يا سرورها ... إذا سمعت أنى أفوق على جحا

أرأيت كيف يغمس ابن سودون هزله فى ليقة المفارقات ، فاذا الفكاهة تستوى له على هذه الصورة المتناقضة ، فهو يبدأ حديثه بأن الانسان إذا سما عقله أخذت تدخل عليه هذه اليقينيات من مثل أن الأرض من فوقها السماء وأن السماء من تحتها الأرض ، وأن بين السماء والأرض أشياء متى انكشفت لنا رأيناها . وليس هذا كل ما يقف عليه الانسان حين يسمو عقله ، فانه يقف ايضاً على أن الناس من نسل آدم وأن أبا صاحبنا زوج لأمه . وماذا من الجدة فى هذه اليقينيات ؟ إنها لا تحتاج الى سمو فى العقل وما يشبه السمو ، غير أن ابن سودون يستغل ذلك نفسه ليحدث لك المفارقة حين تسمع وصف هذه الأشياء وأنها تحتاج الى عقل راق ، ثم تقرأ فاذا أنت أمام حقائق أولية . وإنه ليحاول أن يأتى بأبسط ما يمكن من هذه الحقائق ليجعلك تغرب فى الضحك . ويتطرق ابن سودون من هذه المقدمة إلى بيان ما رآه فى البلدان المختلفة من عجائب ، وهو يبدأ بمصر فيروى لك حقائق عامة مألوفة ، ولكنك ما تقرؤها حتى تضحك لأنه عرف كيف يعبث بمنطقك

هذا العبث الذى جعله يقص عليك أن الفجر بمصر يظهر قبل الشمس ، وأن الظهر يمر بنا قبل العصر . وإنه ليؤكد ذلك كأنه شئ مشكوك فيه ، فيقول إنها حقيقة « بلا مراء » . وينتقل ابن سودون بسامعه من مصر إلى الشام فيروى له أن بها ناساً ظهر كل منهم وراءه ، كأن الناس على قسمين ، قسم هذا الذى يراه فى الشام ، وهو قسم غريب ، ولذلك وقف ليدلنا عليه وعلى مبلغ ما رأى هناك من غرائب ، أما القسم الآخر فقد سكت عنه لأنه مفهوم ومعروف ، وهو إنما يروى المجهول غير المعروف . هذه قصة الناس هناك ، أما بدرهم فان ضياءه يستتر حال الغيم وأما شمسهم فان ضياءها ينتشر حال الصحو ، وهناك تسخن النار فى الصيف ويبرد الماء فى الشتاء ، كأن ذلك كله شئ خاص بالشام . ويترك الشام إلى الصين فاذا هو يحدثنا أن بها صينيا يظن مثل ماذا ؟ « كصينى طرقت سوا سوا » . هل جاء ابن سودون بشئ ؟ إنه كما يقولون فسر بعد جهد جهيد الماء بالماء ، وهو يستمر فى هذه المفارقة ، فالناس فى الصين يضحكون فى أوقات فرحهم ويبكون فى أوقات حزنهم ، وينتقل من الصين إلى الهند فيحدثنا أن من رأى هناك شيئاً بعينه ، فقد رآه بعينه ! هل قال ابن سودون شيئاً أكثر من أنه غالطنا ، فاذا هو يعيد ما قاله فى الشطر الأول فى الشطر الثانى . وما من شك فى أنه حاول أن يغرب ما وسعه الاغراب حين أخذ يعرفنا بأن الرجال هناك يختلفون عن نسائهم اختلافاً بينا لما لهم من لحى ، كأن اللحى خاصة من خواص رجال الهند دون سواهم . وأعجب من ذلك وأغرب أن من يمشى هناك وسط النهار تراه وسط النهار وقد مشى ، وهى مغالطة طريفة .

ويعود ابن سودون إلى مصر أخيراً فيتكلم عن إقليم الصعيد ويعجب أن به ثماراً كأثمار العراق لها نوى ، أرأيت إلى هذا النظير أو قل هذا القياس الدقيق؟ إنها علوم ابن سودون الكثيرة كما يقول ، تلك العلوم التى تجعله يقتنع بأنه من الناس ، ولقد تعلمها باجتهاده ورحلاته ، وما تعلمها من أم ولا أب بل ولا من زوج ولا من حما ، وإنما تعلمها من طريق تحقيقه وفطنته وذكائه ، وإنه ليهئ أمه بنفسه مرددا أنه يفوق على جحا . وحقا أنه كان جحا القرن التاسع الهجرى ، ولم يكن يعتمد فى جحويته على النوادر والنكت كما كان يعتمد جحا ، بل كان يعتمد على هذا الفن من الهزل الذى لا نبعد إذا قلنا إنه تفوق فيه لا على جحا وحده بل على كل من سبقوه . وهو فن — كما رأينا — كان يعتمد على المفارقات المنطقية . وربما كان من أطرف القطع التى تصور ذلك قوله فى رثاء أمه :

لموت أمى أرى الأحزان تحنينى ... فطالما لحستنى لحس تحنين
وطالما دلعتنى حال تربيتى ... خوفا على خاطرى كيلا تبكينى
أقول نمنم تجى بالأكل تطعمنى ... أقول أمبو تجى بالماء تسقينى
إن صحت فى ليلة وأنوأ لاسهرها ... تقول : ها ها : بهز كى تنينى
كم كحلتنى ولى فى جبهتى جعلت ... صوصو بنيلى وكم كانت تحنينى
وربما شكشكتنى حين أغضبها ... وبعد ذا كشكشتنى كى ترضينى
ومن فقيهى إن أهرب ورام أبى ... مسكى وبعثى له كانت تخبينى
وزغرطت فى طهورى فرحة وغدت ... تنثر الملح من فوق وترقينى
وفى زواجى تصدت للجلاء عسى ... على المنصة تلقانى بتزيين

وربت اولاداً ايضاً مثل تربيتى
وخلفتنى يتيما إبن أربعة
يعظم الله فيها الأجر لى وكذا

وبعد ذلك ماتت آه وانينى
وأربعين سنيناً فى حسابيتى
لى فى من بعدها جودوا بآمين

وما من شك فى أن كل من يستمع إلى هذا الرثاء يغرق فى الضحك ؛ لأن ابن سودون اعتدى على الموقف التقليدى فى مثل هذه الظروف اعتداء شديداً أو قل اعتداء صارخا . وأى عدوان أبعد من هذا العدوان الذى نجد فيه شخصاً يقف بازاء أمه — وقد لبت نداء ربها — ليرثيها وكأن كل كلمة فى رثائه تعبر عن دمعة تنحدر من عينه ، فاذا هو يترك ذلك كله وما يتصل به من حشمة ووقار إلى مظهر جديد لم نره عند أحد من قبله ، وهو مظهر لا يتصل بالحزن ولا بالرثاء ، وإنما يتصل بالفرح والسرور ، كأنما يتحدث إلى أمه فى أحد أعياد ميلادها ، وهى قائمة بين يديه تستمع إلى طرفه فتضحك ، وقد تغرب فى الضحك لأنه بعد أن بلغ أربعاً وأربعين سنة يحدثها عن ذكرياتها القديمة . وهذه المخالفة فى الموقف وما تنطوى عليه من مفارقة هى أساس فكاهة ابن سودون فى هذه القطعة . وارجع إلى مطلعها فانك تراه فى الشطر الأول من مقطوعته يكاد ينهد من حزنه انهداداً فقد قوسه الحادث وحناه . ولكنك لا تقرأ الشطر الثانى حتى تجد المفارقة ، فاذا هو يذكر كيف كانت أمه « تلحسه لحس تحنين » وكيف كانت « تدلعه » خوفاً على « خاطره » . ونستمر فاذا هو يحكى لغة الأطفال ذاكراً أنه كان حين يقول نمنم تأتى أمه له بالأكل وحين كان يقول أمبو تأتى له بالماء . أرأيت صرامة الموقف وما يمليه على ابن سودون ؟ إنه لا يملى عليه إلا هذه الفكاهة وما يطوى فيها من ضحك فى موضع الرثاء وما يطوى فيه من حزن . ولا يكتفى ابن سودون بذلك إذ نراه يعمد إلى محاكاة بكاء الأطفال وما يقترن بهذا البكاء من هز أمهاتهم لهم وقولهن ها ها ونحو ذلك . ثم يسترسل فى الحديث عن حنو أمه عليه وكيف كانت تكحله وكيف كانت « تحنيه » ثم كيف كانت « تشكشكه » وكيف كانت « تكشكشه » . ثم يقص علينا كيف كانت « تخبيه » حين يهرب من الفقيه وأنها « زغرطت » يوم ظهوره وزينته يوم زواجه . وأخيراً يعلن أنها خلفته يتيما ابن أربعة وأربعين سنينا ، كما يقول . وكل هذه مفارقات ؛ فهو يتيم وهو فى الوقت نفسه ابن أربعة وأربعين ، وهو باك وهو فى الوقت نفسه ضاحك ، بل إنه ليضحك حتى يخرج بضحكه إلى هذا الهزل وما يتصل به من فكاهة . وفى أى موضع يصنع ذلك ؟ فى الرثاء أو بعبارة أخرى فى أكثر المواقف دعوة للحزن وأشدها استثارة للبكاء ، وهو بلا ريب يجرح هنا شعورنا ؛ لما اصطلحنا عليه فى مثل هذا الموضع ، لكنه جرح ينتهى بنا إلى أن نضحك بل إلى أن نغرق فى الضحك لأنه جاء على غير أهبة وبدون انتظار ، وإنه ليغلو فى ذلك غلو البله . وهذا هو وجه طرافته وجمال فكاهته . وارجع إلى ديوانه فستجده دائماً يعتمد على هذه المباينات بين ما تنتظره وما يستقبلك به من أشعاره . ومن أطرف ما جاء من ذلك وصفه لحفلة زواجه إذ يقول :

حل السرور بهذا العقد مبتدرا
والكل كلل وجه الأرض فانعطفت

ونجم طالعه بالسعد قد ظهرا
أغصانه بالتهانى تنثر الزهرا

والطير من فرحها فى دوحها صدحت ... بكل عود عليه لا ترى وترا
تقول فى صدحها دام الهنا أبداً ... على العرايس كى يقضوا به الوطرا
وكنت عند زفافى قد وصلت إلى ... حد الأشد وعقلى فى الورى اشتهرا
فكنت أعرف من عقلى وكثرته ... أنى إذا نمت مع ظهرى يكون ورا
هذا وعقل عروسى كان أصغر من ... عقلى ولكن حوت فى عمرها كبرا
فى السن قد طعنت ما ضر لو طعنت ... بالسن من رمح أو سيف إذا بترا
فى لونها نمش ، فى أذنها طرش ... فى عينها عمش للجفن قد سترا
فى بطنها بعج ، فى رجلها عرج ... فى كفها فلج ما ضر لو كسرا
فى ظهرها حدب فى قلبها كدر ... فى عمرها نوب كم قد رأت عبرا
يا حسن قامتها العوجا إذا خطرت ... يوما وقد سبسبت فى جيدها شعرا
تظل تهتف بى : حسنا حظيت بها ... أواه لو حاشها موت لها قبرا

وأنت تراه يعمد فى هذه القطعة إلى المفارقة حتى يستخرج ما يريد من هزل وفكاهة . فقد بدأ شعره بالسرور وطالع السعد وما كان من مشاركة الطبيعة والطير للعروسين فى فرحهما ، وما نستمر حتى نراه يعمد إلى التباله بل إنه ليعلنه ، فعقله على كثرته لم يكن يعرف به إلا انه إذا نام كان ظهره من ورائه ، ومع ذلك فعقله أكبر من عقل زوجه . وقد ذهب بعد ذلك يعرض علينا زوجه هذه فى صورة مشوهة لا تنسجم مع مطلع شعره ، وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يعمد إلى ضروب من المفارقة والتباين فى هزله ، فبينما هو فى مستهل هذه القطعة يملأ الجو بشراً وابتساما لهذا الزواج السعيد ، إذ هو يملؤه بعد ذلك كآبة وغيما واكفهراراً ؛ لما صدم شعورنا به من وصفه لهذه الزوج القبيحة التى جمعت فنون القبح كلها . وهو يعمد إلى المبالغة فى هذه الفنون حتى يستتم ما يريد من إضحاك وتفكه . وأمعن النظر فى القطعة فانك تجده يقف أثناء وصفه لقبح هذه الزوج المسكينة ليظهر إعجابه بقامتها على ما فيها من عوج وأمت ، بل على ما فى صاحبتها من بعج وعرج وفلج وحدب ! وهذا هو التباين أو هو المفارقة التى تنبع منها فكاهة ابن سودون ، وإنها لمفارقة تميزه من نظرائه الفكهين فى الشعر العربى ، بل فى الشعر المصرى نفسه ؛ فنحن لا نعرف أحداً سبقه إلى هذا التفنن الواسع فى استخدام المفارقة على هذا النحو فى شعره ، فاذا هو يتحول كله إلى هذه الطرائف الفكاهية . وقد كان ابن سودون يدمج فى هذه المفارقة ضروبا من التباله وإظهار الغفلة كما مر فى الأمثلة السابقة وعلى نحو ما نجد فى قوله :

البحر بحر والنخيل نخيل ... والفيل فيل والزراف طويل
والأرض أرض والسماء خلافها ... والطير فيما بينهن يجول
وإذا تعاصفت الرياح بروضة ... فالأرض تثبت والغصون تميل
والماء يمشى فوق رمل قاعد ... ويرى له مهما مشى سيلول

وهو لا يأتى بشىء غريب ومع ذلك فان لنا فى هذه القطعة أقرب الأشياء من حسنا شيئاً من الضحك يلم بنا ؛ لأن ابن سودون جمع وذهب يرويه فى هذا الضرب من البله والسذاجة ،

وهى سذاجة هيأته لأن يصف كل ما يتصل به حتى لغة الأطفال نجدها فى شعره كقوله :

ولما أن كبرت بحمد ربى ... وصار لمنتهى عقلى ابتداء
بقيت أقول تتو تتو تاته ... ودحوكخ وانبو مم آه

فقد حشد فى البيت الثانى كل ما يمكن من لغة الأطفال بوله فى هذا الباب طرف كثيرة . وقد حكى فى ديوانه كثيراً من أصوات الحيوانات ؛ إذ نراه يقلد صوت الخروف والبقرة ، وقد قلد صوت الأوزمراراً . ومن طرفه قوله فى « كتكوت » :

شريت لى كتيكيت ... فيسو بزيق
عـرين يصـيح ... من البرد زيق
لو حليق فيـه زماره ... وحنيك فيـه نقاره
يزمر ينقـر ... دويحـك رشـيق
آقول لو كتـكت ... يكتـكت يجى
يرفرف يزقزق ... لحسو زعيـق
لو جناح لاح من جنبو ... كلما انشرح لوح بو
غـليظ البطينـه ... ولو ساق رقيق
كبر صار شويطن ... يناقر أخوه
ويعمـل لاختو ... قبيح فى الطريق

وما من ريب فى ان هذه قطعة خفيفة ، وإنها لتعبر عما امتاز به ابن سودون من حاسة الفكاهة التى لانجد لها نظيرا بين من عاصروه ، فقد كان يعرف كيف يجمع الصفات والخصائص لكل شئ يعالجه ، وكانت تسعفه فى ذلك مخيلة لاقطة تعرف كيف تضم أشتات الصورة بعضها إلى بعض . وقد تعلق بجانب ذلك بوصف الأطعمة والتحدث عنها تحدثا يشوبه الجشع بل تشوبه «الفجعة» . وقد أتى فى هذا الباب ببدع كثير . وله بعد ذلك مواليات كثيرة لعل من أغربها قوله :

التور والبقرا ذى العام ومن قبله ... فى مصر والشام وف غزه مع الرمله
هديك تحبل وتولد عجل أو عجله ... وذاك فى الساقيا ياكل بفرقله

وإن الانسان ليخيل إليه أن ابن سودون لم يترك شيئاً فى حياته يمكن أن يستخرج منه لوناً من ألوان الفكاهة إلا بعثه وعرضه أمام نظارته وقرائه . وقد ساق فى ديوانه مجموعة من الحكايات والطرف النثرية ، وإنها لاتقل غرابة ولا إضحاكا وتفننا فى الاضحاك عما رويناه من شعره بل لعلها تتفوق فى كثير من جوانبها على هذا الشعر . وقد نعرض لها فى مقال آخر ، أما الآن فحسبنا من شعره هذه النغب الطائرة .

شوقى ضيف